دراسات تحليلية :

جلال الدين الرومي

الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

في بيت العلم والدين ، وبين مظاهر الورع والتقوى ، ولد أعظم الشعراء الصوفيين ، جلال الدين الرومي بن بهاء الدين سنة ٦٠٤ بعد الهجرة النبوية في بلخ من بلاد الفرس . وكان أبوه من أكابر علماء الدين في بلاط خوارزم شاه حاكم المدينة ، ودرج الصبي في حجر والديه يشهد حلقات الدرس ويرى مظاهر الإجلال والإكبار تحف بوالده ، فنشأ مشغوفاً بالعلوم وخاصة ما كان منها متصلا بذات الله تعالى .

ورأى الحاكم ما عليه من مظاهر الورع والتقى وانصياع الناس له وإطاعتهم لأمره ، فداخله منه حسد وحقد وأضمر له السوء ، وبلغ ذلك بهاء الدين ، فعزم على الرحيل . وفي جوف الليل وقد آوى الناس إلى مضاجعهم يطلبون الراحة من عناء العمل ، ويبتغون الهدوء من نصب النهار ، خرج بهاء الدين بأسرته خائفاً يترقب . ورأى أن أول شيء يفعله ، أن يحج بيت الله الحرام ويزور القبر الشريف يستمد العون من صاحب البيت وساكن القبر ، وبينما الركب في الطريق التقى بالشاعر فريد الدين العطار ، فلما رأى جلال الدين توسم فيه خيراً ، ولمح في عينيه بريق الذكاء ، فدعا له بالبركة وأهدى إليه نسخة من كتابه (أسرار نامه) .

وفي البيت العتيق مكثت الأسرة ما شاء لها الله أن تمكث ، ثم خرجت تطوف بأرض الله ، حتى ألقت عصا التسيار في قونية ببلاد الأناضول وكانت تسمى إذ ذاك بلاد الروم ، وهذا سبب تسميته الرومي . وفي القر الجديد جلس والده يعلم الناس كما كان في بلخ .

وكان لقام الصبي في مكة ولمن لقي هناك من رجال الدين وعيامهم بحب الله أثر كبير في نفسه ، فظهرت عليه علامات الورع ولما يزل صبياً لم يبلغ مبلغ الفتيان .

وفي قونية سمع بالشيخ برهان الدين الترمذي ، فذهب إليه وتلقى عليه مبادىء التصوف وبدأت نفسه تتفتح إلى الآفاق العليا ، تتفتح الزهرة تحلتها أشعة الشمس ، فقد صادف علم التصوف وكلام المتصوفين هوى من نفسه فانكب على دراسته . ولما قبض والده ، رحل إلى حلب ودمشق وغيرها من بلدان الشرق ، ليتزود من العلم ما تتوق إليه نفسه ويهواه قلبه ، وطاف بهذه البلاد يزور علماءها ويسمع من فمائهم ، ثم عاد إلى قونية مرة أخرى ، ليجلس مجلس والده في حلقات العلم .

وسمع شمس تبريز الصوفي المعروف ، أن في قونية صوفياً مبتدئاً يتألق بالحب الإلهي ، فوصل إليه ليدله على الطريق الصحيح ويمهد له سبيل الوصول . واتصل بجلال الدين ، فأخذه جلال الدين مرشده الروحي ، وما زال شمس تبريز ينفخ في هذه الجمرات المتقدة من الحب ويزكي ضرامها حتى جعلها شعلة نيرة ، ولازم كل منهما الآخر وقتاً طويلا ، وشغل جلال الدين بمرشده ، وتقم تلاميذه على شمس تبريز لأنه حرمهم أستاذهم فأجبروه على قونية ليخلو لهم جلال الدين ، ولكن هيهات فقد استأثر به شمس تبريز وقت وجوده وسحرته تعاليمه بعد فراقه ، فلزم داره وخلا إلى نفسه يبحث عن طريق الوصول إلى الذات العلية .

***

وشرح جلال الدين مذهبه الصوفي وأوضحه فيما ألف من شعر غنائي بالغ في الرقة والعذوبة . ويتميز شعره بسمو الفكرة وجمال الأسلوب وإشراق الديباجة ووضوح الخيال مما أكسبه روعة وجمالا .

وجمع ما نظمه في دواوين سمى أحدهما (ديوان شمس تبريز) لأن معظمه كان مما أوحى به إليه مرشده الروحي فسماه باسمه ؛ والآخر (المثنوي) وهو قصيدة واحدة كبيرة ، قيل إن نظمها استغرق أكثر من أربعين سنة ، وأنها جمعت في ستة كتب ، وفي هذه القصيدة صور مبتكرة متعددة تجمع بين رشاقة الأسلوب ودقة الصنعة .

***

وحب الروح ، والعمل على الاتحاد بذات الله تعالى ، والتخلص من شوائب النفس وأدرانها هو بيت القصيد في تعاليمه . فالحب يخلص أصحابه من الغرور والصلف ، ويرى فيه الدواء الناجع

والطبيب المداوى لأمراض النفس وعلاتها ، والإيمان الخالص مصدره الحب ، لأن المحب إذا اتحدت روحه بمحبوبه أهمل نفسه وأهمل شأنها وشغل بمن أحب ، ولا يضيره أن يتحمل المكاره ويستعذب الآلام ويصبر على الإحن لإرضاء محبوبه ، ولا يزال هذا حاله من السعى والجهاد حتى تفنى نفسه فى محبوبه ويصبح جزءا منه .

فإذا وصل إلى درجة الفناء فقد وصل إلى الكمال ، وبذلك يبعث بعثاً روحياً جديداً فيحيا الحياة الخالدة ، ويصير جزءاً من المحبوب فيبقى إلى الأبد . وفى ذلك يقول « فاختر حب الذى يبقى أبداً والذى يسقيك من الخمر التى تنمى الحياة وتهب الخلود » .

بالحب تتبدل الأشياء ، فيصير الظلام نوراً والألم لذة ، ويتحول الحديد ذهباً ، ويتغير طعم المر فيصبح حلواً . وبالحب يحيا الإنسان حياة سماوية وهو لا يزال فوق سطح الأرض فيقول : « العاشق المخلص هو الذى يقول له الله : (أنا لك وانت لى) » .

فالعشق الإلهى هو التسامى عن كل أعراض الحياة ، والطيران إلى الآفاق العليا ، وتمزيق الحجب التى تحول بين العاشق والمعشوق وتحطيم ما يقف سداً بين الإنسان ومن أحب . والعشاق المخلصون فى حبهم كالظلال إذا أشرقت عليهم شمس المعرفة تلاشت ظلالهم واختفت ، لأنها لا تقوى على البقاء فى النور القوى الذى هو النور الإلهى . وفى ذلك يقول : « يا حياة العشاق فى الموت ، ولن تجد قلباً إلا بعد أن يحطم قلبك » .

والغرض من الحب والتضحية بالحياة الفردية وإفناء النفس ، هو نشدان حياة أسمى وأرفع ، ومن أراد إدراك الحقيقة فعليه أن ينكر ذاته ويعتبر نفسه غير موجود . وهو يقول : « أولا ، تنزع النفس من النفس ، ثم تفصل قدم عن قدم ، وأن تعتبر هذه الدنيا غير مرئية ، ولا ترى منظر نفسك » .

أما الحياة الدنيا وزخرفها ومتاعها ، والنفس ومشاغلها ولهوها ، فهى حجب كثيفة تحجب المحب عن بلوغ مأموله ؛ فعليه أن يجتاز هذه الموانع ليصل إلى النشوة الروحية حيث ينسى نفسه ويرتفع إلى جلال الحقيقة الخالدة فى بهائها وروعتها . فإذا وصل المحب إلى هدفه المنشود واتحد بالذات الإلهية فقد حصل على الخلود وانفلق له صبح السعادة وشع نور رب الأرباب فى روحه وملأ جوانب نفسه . وفى ذلك يقول « ذلك الذى حصل على مقام ومكان فى ملكوت السموات ونورها ، لا يزال يغرق فى النور دائماً » .

والمحب الذى يصل إلى هذا النوع من التوله يحب الله والهيام بجلاله يكون قد حصل على الحياة التحدة ، والإنسان إذا بلغ هذه المنزلة صار عارفاً بالله ، ولم تعد به حاجة إلى الوساطات والشفاعات . لذلك يرى جلال الدين أن الأنبياء المرسلين لا يحتاج إليهم إلا الأشخاص العاديون ، وأما من اتحد بالواحد وأصبح يسمع الصوت الباطنى فقد استغنى عن الكلمات الخارجية لأنه صار من أولياء الله الذين أسكرهم حبه فشملوا بخمره وغرقوا فى جلال عظمته ، واتحدوا مع البحر اللانهائى للذات الربانية فيقول جلال الدين فى ذلك « لقد طردت الإثنين من نفسى ورأيت العالمين عالماً واحداً ، وبحثت عن الواحد وعرفت الواحد ورأيت الواحد ودعوت الواحد . هو الأول ، هو الآخر ، هو الظاهر ، هو الباطن . ولست أعرف آخر سوى (يا هو) أو (يا من هو) » .

***

ويتصور جلال الدين الذات الإلهية داخلة فى جوهر الكون بحالة فى مخلوقاته ، وأن التأمل يرى ذات الله فى كل الأشياء لأن الكون ما هو إلا مرآة تظهر فيها آثار صفاته وبديع حكمته تعالى فيقول « رأيت الأبد مرآة عامة لك ، وفى عينيك رأيت صورة نفسى » .

والله تعالى جلت قدرته محيط بالكون مطلع على أسرار خلقه يعلم السر والنجوى وإن كانت لا تدركه الأبصار ، فى نعمه الكثيرة وعطاياه المتعددة أكبر دليل على عظمته وسلطانه القاهر وحكمته السامية ، فيقول جلال الدين فى إحدى قصائده :

يا خفياً قد ملأت الخافقين ، قد علوت فوق نور المشرقين ،
أنت سر كاشف أسرارنا ، أنت فجر مفجر أنهارنا ،
ياحق الذات محسوس العطا ، أنت كالماء ونحن كالرحى ،
أنت كالريح ونحن كالغبار تختفى الريح وغبراها جهار

ويعتقد أن الروح كانت فى البدء إلهية متحدة مع الحقيقة العظمى ، ولكن القدرة الربانية انفصلت عن الإنسان لتظهر ، ويتجلى الوجود فى العدوم والباقى فى الفانى ، فبضدها تتميز الأشياء . فالمداد لا يظهر إلا فى الصحيفة البيضاء ، والنور لا يتجلى

إلا في الظلام . فيقول جلال الدين : « كنا جوهراً واحداً مثل الشمس ، كنا بلا عيب وكنا في صفاء الماء » .

والروح مرآة صافية تعكس نفس صاحبها ، واحتكاكها بما هو مادى وانغماسها في حب الحياة ولهوها قد عكر صفاءها وشاب رونقها . والنفس أمارة بالسوء ميالة للهوى والمعاصي ، فعلى من أراد أن يحظى بالمنزلة عند الله وينال رضاه ، أن يتقرب إليه . ولن يبلغ هواه من التقرب إلا إذا كان نظيف الثوب طاهر الذيل خالياً من الأقذار ، فليغسل ثوبه من المعاصي ويجل روحه من صدأ الهوى ، وليتجمل بالصبر وتأديب النفس ومواصلة جهادها حتى تصفو المرآة فتعكس الصورة واضحة جلية ، فإن لم يفعل ذلك فهو الشقي البعيد . « إذا أنت أنفت من كل مسحة فأنى لك أن تصير مرآة مصقولة ؟ »

وكان جلال الدين كثيراً ما يذكر في هذا المجال ما وقع بين الصينيين واليونانيين ليبين كيف أن الروح إذا صفت أظهرت الشيء في أجمل صوره وأحسن أشكاله .

فيحكي « أن جماعة من الصينيين واليونانيين تخاصما أيهما أجود فناً ؛ ولجا في الخصومة ، ثم تحاكما إلى السلطان ليحكم بينهما ، بأن أعطى كل فريق حجرة ليظهر فيها براعة فنه ، وجعل باب كل منهما مواجها للآخر وقدم لهما ما يحتاجان إليه من ألوان وأدوات فأخذ الصينيون منها عدداً عظيما ، وأما اليونانيون فعمدوا إلى حجرتهم فصقلوا جدرانها وأزالوا ما بها من صدأ . وأخيراً ذهب السلطان إلى حجرة الصينيين فبهره بديع فنهم ، ثم ذهب إلى اليونانيين فإذا بصورة مما نقشه الصينيون قد انعكست على الجدار فازداد منظرها رونقاً وجمالا تشهد لهم بعظيم فنهم »

فاليونان بعملهم هذا يمثلون العارفين الذين طهروا قلوبهم وصقلوا نفوسهم فوصلوا إلى عين اليقين ، فليس الأمر أمر زخارف وألوان وصور وأشكال ، بل أمر صفاء وتطهير .

والذين يطهرون قلوبهم ويهذبون نفوسهم ويتخلصون من الأكدار ينجون من مجرد العطر واللون ، فيرون الجمال في كل شيء وكل لحظة . وفي ذلك يقول : « إن روح الإنسان كالهواء المختلط بالتراب يحجب نور السماء فلا تستطيع العين أن ترى الشمس ، وحين يصفو الجو وينقشع التراب يصبح صافياً طاهراً » .

ومن أغواه الشيطان وأضله الهوى ، ثم أراد العودة إلى ملكوت الله وتاب من ذنوبه ، فالطريق أمامه واضح جلي جلاء الصبح ، فعليه بتأديب نفسه وزجرها عن المعاصي وإماتتها في نشدان التوبة والغفران فالله يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، وفي ذلك يقول جلال الدين :

« ما معنى تعظيم الله ؟ اعتبار المرء نفسه حقارة خاوية » .

« ما معنى توحيد الله ؟ حرق المرء نفسه بين يدي الواحد ذي الجلال » .

فإحياء الروح وخلودها لا يتأتى إلا بإماتة النفس وإفنائها في ذات الله فيقول « إذا لم يسقط الزهر لا يبدو الثمر ، وإذا لم يفن الجسم لا تسمو الروح ، وإذا لم يكسر الخبز لا يمدنا بالقوة والحياة ، وإذا لم تعصر الأعناب لا تعطينا خمراً » .

وطريق التوبة طويل الدروب وعر المسالك كثير الأشواك ، فإذا لم يكن الساعي إلى الوصل ذا صبر وجلد ، سقط في الطريق صريعاً قبل أن يبلغ الهدف ويحظى بنعمة الوصل . فيقول جلال الدين في الحث على مواصلة الجهاد ، والاستمرار في السعي إلى كعبة الوصل : « في كل صباح يأتيك صوت من السماء ينادي ، إذا أنت نفضت غبار الطريق ، فستنطلق إلى هدفك المقصود » ويقول : « في الطريق إلى كعبة الوصل انظر تجد في كل أيكة من الشوك ألوفاً من قتلى الشوق ضحوا بحياتهم ببسالة » ويقول : « ألوف سقطوا صرعى على هذا الطريق دون أن يصل إليهم نسيم من عطر الوصل كدليل من جوار الصديق » .

هؤلاء هم الذين أضجرهم طول الطريق ، ولم يصبروا على مكارهها فذهبت حياتهم قبل أن يبلغوا الهدف الأسمى من كعبة الوصل ونعمة القربى من ملكوت ذي الجلال .

***

فجلال الدين الرومي صوفي حلولي ، وفوق ذلك هو من أعظم الفنانين بإشراق ديباجته ، ووضوح خياله ، وإبراز معانيه . وهو أول من أنشأ الذكر الصوفي الذي يؤدى على نغمات الناي ، والذي نظم له من الشعر الشيء الكثير ، وتسمى طريقته (المولوية) وأساسها الحب الإلهي ومبدأها التفاني في حب الله .

وتوفي جلال الدين سنة ٦٧٢ بعد الهجرة بقونية ودفن بها . ولم يقتصر مشيعو رفاته وارثوه على المسلمين بل كان من بينهم المسيحيون وغيرهم .

(أسيوط) عبد الموجود عبد الحافظ